١٩ ـ القاهر بالله: ٣٢٠ ـ ٣٢٢ هـ/٩٣٢ ـ ٩٣٤ م.

تولى أبو منصور محمد بن المعتضد الخلافة سنة ٣٢٠ هـ/٩٣٢ م، ولقب القاهر بالله. وصفه المؤرخون بأنه كان مهيباً مقداماً على سفك الدماء، أهوج محباً الأموال، رديء السياسة. صادر جماعة من أمهات أولاد المقتدر، كما صادر أم المقتدر، وعلقها برجل واحدة منكسة الرأس، وعذبها بمختلف أنواع العذاب من ضرب وإهانة، حتى ماتت بعد أيام قليلة حزناً على ولدها المقتدر بالله وما لحقها من عذاب[٣٠].

تآمرت جماعة الساجية[٣١]، وجماعة الحجرية[٣٢] وأخذتا تدبران لإطاحة القاهر بالله بعد أن علمتا أنه أخذ يقيم المطامير[٣٣] للفتك بزعمائهم. لكن القاهر بالله أحسّ بما أضمر له الساجية والحجرية، فألقى القبض على زعمائهم وقتلهم جميعاً.

أثار هذا الأسلوب القاسي قادة الجند، فاتفقوا على خلعه، وزحفوا إلى داره وهاجموها، وهو بداخلها مخمور، فلم يستطع الهرب. فقبضوا عليه وسملوه حتى سالت عيناه على خديه، وبذلك انتهت مدة خلافته، وظل محبوساً إلى أن مات سنة ٣٣٩ هـ/ ٩٥٠ م في عهد الخليفة الطائع لله ٣٣٤ ـ ٣٦٤ هـ/٩٤٥ ـ ٩٧٤ م.

٢٠ ـ الراضي بالله: ٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ/٩٣٤ ـ ٩٤٠ م.

هو أبو العباس أحمد بن المقتدر بن المعتضد، بويع بالخلافة سنة ٣٢٢ هـ/٩٣٤ م. وقد تفشى الفساد في الدولة العباسية، وكثرت الرشاوى للحصول على المناصب بعد تحكم الجند والنساء في تدبير أمور الدولة. ومع هذا كان الراضي بالله كما وصفه ابن طباطبا[٣٤]: «شاعراً فصيحاً ترك مآثر للخلفاء العباسيين منها أنه:

---

(٣٠) الكامل في التاريخ ٦ / ٢٢٢ ـ ٢٢٣. والبداية والنهاية ١١ / ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٣١) جماعة الساجية: أتباع يوسف بن أبي الساج احد قواد المعتمد على الله.

(٣٢) جماعة الحجرية: فرقة من الحرس الخاص في قصور الخلفاء كانوا يقيمون في حجر منفردة. وقيل نسبة إلى حجر المشهورة ـ بفتح الحاء ـ.

(٣٣) المطامير: حفر تحت الأرض تعد للسجن والتعذيب.

(٣٤) الفخري في الآداب السلطانية ٢٨٠.

آخر خليفة دون له شعر،
وآخر خليفة انفرد بتدبير الملك،
وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة،

وآخر خليفة جالس الندماء ووصل إليه العلماء.

وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزه وخدمه وحجابه تجري على قواعد الخلفاء المتقدمين.

وخير دليل على ما وصلت إليه الدولة العباسية في أيام الراضي بالله استوزاره ابن مقلة لقاء مبلغ خمسمائة ألف دينار ـ للمرة الثالثة ـ[٣٥]. ولكنه لم يبق في الوزارة طويلاً، إذ ثار عليه الجند، فانتهت فتنتهم بعزله. ثم استوزر الراضي بالله عبد الرحمن بن داود بن الجراح الذي سرعان ما ظهر عجزه هو الآخر عن تصريف شؤون البلاد.

واتخذ الراضي بالله تدبيراً حسناً باستدعائه سنة ٣٢٤ هـ/٩٣٦ م ابن رائق ـ الذي كان والياً على واسط والبصرة ـ وسلمه مقاليد الأمور، وكلفه تدبير أعمال الخراج والصناع وأعمال المعادن في جميع النواحي. ثم لقبه «أمير الأمراء»، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر في الدولة العباسية[٣٦].

هذه الصلاحيات الواسعة، حدّت إلى حد بعيد من نفوذ الوزير، فلم يعد الأخير ينظر في شيء من أمر النواحي ولا الدواوين. ولم يبق له من الوزارة إلا اسمها. حتى أنه حرم من الحضور إلى دار الخلافة إلا في أيام الموكب، وعندئذٍ يحضر ليقف ساكتاً.

إذن دخلت الدولة العباسية في عهد الراضي بالله مرحلة جديدة أطلق عليها «عصر أمرة الأمراء» إذ ان صاحب هذا المنصب ـ أمير الأمراء ـ صار المتصرف في أمور الدولة وأموالها، وهو الذي يخصص للخليفة ما يكفيه من النفقات، فبطلت بيوت الأموال، واستقل العمال في الأطراف، وخلعوا الطاعة للخليفة الذي لم يبق له غير بغداد وأعمالها علماً أن الحكم فيها لأمير الأمراء وليس للخليفة.

نتيجة لهذه السياسة ظهرت منافسة قوية لابن رائق من قبل الأمراء، فزال

---

(٣٥) المحري في الآداب السلطانية ٢٨٠ ـ ٢٨١. والبداية والنهاية ١١ / ١٨١ ـ ١٨٢ و ١٨٨.

(٣٦) الكامل في التاريخ جـ ٦ / ٢٥٤ ـ ٢٥٥. والبداية والنهاية جـ ١١ / ١٨٤. والسيوطي. تاريخ الخلفاء ٦ / ٢٥٤ ـ ٢٥٥

نفوذه سنة ٣٢٦ هـ/٩٣٨ م بعدما حاربه أبو عبدالله البريدي ـ صاحب الأهواز ـ. كما خرج عليه أحد قواده واسمه «بجكم»[٣٧]. ولم يلبث أن دخل هذا الأخير بغداد سنة ٣٢٧ هـ/٩٣٩ م. وآلت إليه «أمرة الأمراء» زهاء عامين: ٣٢٧ ـ ٣٢٩ هـ/٩٣٨ م ـ ٩٤٠ م في الوقت الذي ساءت أحوال بغداد، حتى أن العامة عاثوا في الأرض فساداً، وانقضّوا على الحمّامات العامة، وأخذوا ثياب من فيها. وكثرت المصادرات، وتفاقم خطر اللصوص الذين تسلحوا لكبس الدور ليلاً. فبلغ من سوء الأحوال أن الراضي بالله عجز عن دفع أرزاق الجند. واستمرت هذه الحالة إلى أن توفي سنة ٣٢٩ هـ/ ٩٤٠ م.

رافق حالة الفوضى والذعر الذي أصاب الناس من شر اللصوص أن اشتدت المنازعات الدينية ببغداد عاصمة الخلافة العباسية، إذ قويت شوكة الحنابلة، وصاروا يكبسون دور القواد والعامة. فإن وجدوا نبيذاً أراقوه. وإن صادفوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء[٣٨]، ولم يكتف الحنابلة بهذا المقدار، بل استعانوا بالعميان الذين يأوون إلى المساجد. فكان إذا مرّ بهم شافعي أغروا به العميان فيضربونه بعصيهم حتى يكاد يموت. كذلك لم يركن القرامطة إلى الهدوء وسط الفوضى تلك، فاعترضوا سبيل الحجاج سنة ٣٢٣ هـ/ ٩٣٥ م[٣٩].

٢١ ـ المتقي لله: ٣٢٩ ـ ٣٣٣ هـ/ ٩٤٠ ـ ٩٤٤ م

بويع إبراهيم بن المعتضد ـ المتقي لله ـ بالخلافة «وبجكم» القائد قابض بيديه زمام الأمور في الدولة العباسية. فلم يكن للمتقي من النفوذ إلا إسم الخلافة، ولكن التنافس بين الأمراء أضعف أمير الأمراء «بجكم» بالرغم من انتصاره على البريديين[٤٠] عند واسط بالعراق. ثم تتابعت عليه المصائب حتى انتهى الأمر بقتله على أيدي بعض الأكراد.

وعلى أثر موت «بجكم» دخل أبو الحسن البريدي بغداد في جيش كبير من

(٣٧) البداية والنهاية ١١ / ١٩٨ ـ ١٩٩. والسيوطي. تاريخ الخلفاء ٣٩٢.

(٣٨) الكامل في التاريخ ٦ / ٣٤٨

(٣٩) الكامل في التاريخ ٦ / ٣٤٩..

(٤٠) الكامل في التاريخ ٦ / ٣٧٣.

الأتراك والديلم، واستولى على دار الخلافة بعد أن هرب الخليفة المتقي لله وابنه ومحمد بن رائق إلى الموصل. وقتل البريديون في بغداد من وجدوه في دار الخلافة ثم عمدوا إلى النهب والأذى حتى استاء منهم معظم الناس الذين تنادوا إلى طردهم من بغداد وواسط. وبعد غيبة ثلاثة أشهر وعشرين يوماً عاد الخليفة إلى بغداد سنة ٣٣٠ هـ/٩٤١ م[٤١].

بدأ ظهور الأسرة الحمدانية في أيام خلافة المعتضد بالله العباسي (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ/٨٩٢ ـ ٩٠٢ م) عندما كلّف الخليفة المعتضد بالله الحسين بن حمدان محاربة الخارجي هارون الشاري بالجزيرة وانتصر عليه ابن حمدان. وفي أيام خلافة المتقي لله لمع نجم بني حمدان في أفق الدولة العباسية عندما خلع الخليفة على الحسن بن عبدالله بن حمدان ولقبه «ناصر الدولة»، كما خلع على أخيه أبي الحسن الحمداني أيضاً ولقبه «سيف الدولة»[٤٢]. وقد اتخذ ناصر الدولة ابن حمدان سلسلة إجراءات لإصلاح الأحوال في بغداد. لكن هذه الإجراءات لم تعط النتيجة المتوخاة. بل أن تيار الفساد ازداد وكثرت أعمال اللصوص بالسطو على دور الأغنياء، وارتفعت الأسعار حتى ضاق الناس، ومات العديد منهم جوعاً وانتشرت الأوبئة بعدما تركت الجثث عدة أيام بعد الوفات على الطرقات[٤٣].

على أن نجم الحمدانيين لم يبق على تلألئه في فضاء الدولة العباسية بفضل حسد الحاسدين من جانب بقية الأمراء. وقد تمثل هذا الحسد أو العداء على ثلاثة جبهات:

١ ـ خلاف سيف الدولة الحمداني وتوزون.

٢ ـ استعداد البريديين لمعاودة الهجوم على بغداد مرة ثانية، ووقوع الحرب بينهم وبين أحمد بن بويه على مسافة قريبة من البصرة.

٣ ـ سوء التفاهم بين الخليفة المتقي لله والحمدانيين.

وتفاقم سوء التفاهم هذا حينما أقدم ناصر الدولة بن حمدان على مضايقة

---

(٤١) الكامل في التاريخ ٦ / ٢٨٥ والبداية والنهاية جـ ١١ / ٢٠١ ـ ٢٠٣

(٤٢) الكامل في التاريخ ٦ / ٢٨٤ ـ ٢٨٥ والبداية والنهاية جـ ١١ / ٢٠٣

(٤٣) الكامل في التاريخ ٦ / ٢٨٤ ـ ٢٨٥. والبداية والنهاية جـ ١١ / ٢٠٢.

الخليفة وأهله بمصادرة ضياعه وضياع والدته. فبعد أقل من سنة اضطر الحمدانيون إلى العودة إلى الموصل بعد دخول القائد التركي توزون بغداد سنة ٣٣١ هـ/٩٤٢ م ليتولى إمرة الأمراء(٤٤).

ثم قام توزون بطرد البريديين من واسط بعدما استولوا عليها مجدداً لكنه اضطر إلى مصالحتهم والتفرغ لمحاربة الحمدانيين الذين لجأ الخليفة المتقي لله إلى طلب مساعدتهم بعدما ضيق عليه الخناق توزون فهرب إلى تكريت. وفيها انتصر توزون على الخليفة والحمدانيين. وتابع فلولهم حتى الموصل. فاضطروا إلى مغادرتها، وصولاً إلى نصيبين ثم الرقة. والتقى الخليفة في الرقة محمد بن طغج الأخشيد ـ صاحب الدولة الأخشيدية في مصر ـ وقد أتى ليعرض مساعدته على الخليفة. لكن الخليفة اغتر بوعود توزون بحمايته وفضّل العودة من الرقة إلى بغداد على الذهاب إلى مصر(٤٥).

لكن وعود توزون بحماية الخليفة وحلفه الإيمان الغليظة بذلك ما كانت إلا كلاماً معسولاً ووعوداً كاذبة، لأنه أراد الإستئثار بكامل السلطات وحرمان الخليفة من كل نفوذ. وتحقيقاً لمآربه عمل على مصالحة البريديين، ثم عقد صلحاً مع ناصر الدولة ابن حمدان ليتفرغ لأمر الخليفة المتقي لله. ولما أحس الخليفة بما يدبره توزون اتصل سراً ببني بويه الذين وصلوا إلى واسط، ودعاهم للقدوم إلى بغداد، مما أغضب القائد التركي توزون فقبض على الخليفة سنة ٣٣٣ هـ/٩٤٤ م، وخلعه من الخلافة وأقام عبدالله بن المكتفي بالله (٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ/٩٠٢ ـ ٩٠٧ م) خليفة مكانه ولقبه المستكفي بالله. أما المتقي لله فقد سمل عينيه ووضعه في السجن إلى أن مات(٤٦).

---

(٤٤) الكامل في التاريخ ٦ / ٢٩١.

(٤٥) الكامل في التاريخ جـ ٦ / ٢٩٢ والبداية والنهاية جـ ١١ / ٢٠٧ ـ ٢٠٨ وتاريخ ابن خلدون ٣ / ٤١٢ ـ ٤١٣.

(٤٦) الفخري في الآداب السلطانية ٢٨٤. والكامل في التاريخ جـ ٦/٣٠١، والبداية والنهاية ١١ / ٢١٠